

الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

حياة الأديب — الصديق — قلدوا قلدوا — الشيخ
المرآغي — النمو والنماء بين الأزهر والجامعة

حياة الأديب

دُعيت لإلقاء خطبة في تأبين المرحوم عبد الحميد الديب
فأجبت ، وكانت نيتي أن أقول رأيي علانية في الحياة التي
يحياها مثل ذلك الأديب ، لئلا يكون إلا كثر من الثناء عليه
إغراء بذلك اللون من الحياة القفراء

نم رأيت الحفلة فوق ما كنت أنتظر ، فقد اشترك فيها
خطباء وشعراء من الطراز الجيد ، وحضرها جمهور من أفاضل
الناس ، وتبلى فيها خطاب أرسله وزير الشؤون الاجتماعية
وخطاب أرسله وزير الأوقاف . وتلك مظاهرة أدبية تمنع ما أردت
أن أقوله في نقد الحياة التي اختارها ذلك الشاعر المسكين

ولكن هذه المظاهرة بدت لي باعثة جديداً على أن أقول
ما نويت أن أقول ، فقد تجسّم التخوف من شيوع البوهيمية
بين فريق من أدباء الجيل الجديد ، وخِفتُ أن تكون هذه
المظاهرة دعوة إلى تحلل الأديب من واجبات الحياة في نظامها
اللائق بأهل البيان

وكذلك انطلقت فقلت : إن عبد الحميد الديب كان على
جانب من الأدب والذكاء ، ولكنه ظلم نفسه حين انخدع
بالرأي المنحرف ، وهو رأي من يتوهمون أن البؤس يذكي
المواهب ، ويزيد في يقظة العقول . وقد آمن بهذا الرأي إيماناً
فرض عليه أن يحمل همه في الوصول إلى الظفر بلقب « شاعر
البؤس » ، وهو لقب لا يتمناه لنفسه إلا من حُرِمَ نعمة
التوفيق . وماذا جنى عبد الحميد الديب من ذلك اللقب الطشّان ؟
كل ما جناه أن يعيش في رحمة المترجمين ، ولا يحتاج إلى الترحم
غير المساكين ، وإذا كان الأدب لا يتمتع أهله بغير المسكنة فعليه
اللمنة إلى يوم الدين !

نم قلت :

أين الشريعة التي توجب أن نذل أنفسنا في سبيل الأدب ؟
وما قيمة الأدب إن لم يجعلنا أعزّاء ؟

وما هذه الخرافة التي تقول بأن من حق الأديب أن يعيش
بلا مهنة تغنيه عن سؤال الناس ؟

وكيف نهدي الناس إلى الخير ونحن نستهديمهم المال ؟

هل ننسى قول أبي العتاهية :

لو رأى الناس نبياً سائلاً ما وصلوه

إن الاحتياج إلى الناس بداية الانحلال ، ولو كانوا من
الأهل والجيران ، فإن احتياج الأديب إلى معونة إخوانه وهو قادر
على كسب الرزق بمرق الجبين فهو أدب زائف لا أديب صحيح
من واجب الأديب نحو أدبه أن يصونه عن إفضال
الفضليين ، لينطق بكلمة الحق في حرية وصراحة وإخلاص ،
وهذا لا يتيسر للأديب المحتاج إلى الإفضال

هل تذكرون ألقاب شعرائنا وعلمائنا في المصور الخوالي ؟
كانت ألقابهم أنساباً إلى الحريف والصناعات ، فقيمهم
الرجّاح والقفّة ال ، والتمتار والوقاد ، والصبيان والبشّان
والسراج والحداد والزيات واللبان ، وكانت هذه الأنساب
من أجل التشريف ، وهي باقية على الزمان

وإذا كان التاريخ سجل أسماء تكسب أصحابها بالأدب
فقد كان أولئك التكسبون من حواشي الملوك . وقد اصطاح
الناس في كل زمان ومكان على أن هبات الملوك تحيات لامعونات
وهل يتقدم ملك بتشجيع أديب إلا وهو يعرف أنه يضع

جوهرة جديدة بين جواهر التاج ؟

وما حظوظ الأدباء الذين ظفروا بهبات الخلفاء والملوك
والأمراء ؟ ما حظوظهم في التاريخ ؟

كانوا من الوجّهين في الحيات السياسية والأدبية
والاجتماعية ، وكان إليهم المرجع في تدبير شؤون الملك ، وكانوا
التصرفين في شؤون السلم والحرب

فما هو حظ الأديب الذي ينتظر هبات من أدباء لا ملوك ؟

أعاذكم الله من احتياج الرميل إلى الرميل !

إن قتل النفس أهون من الاحتياج إلى الأخ الشقيق ،

فكيف نستطيع الاحتياج إلى الرفيق ؟

عن زهد لا عن يأس ، ولنسكن في فقرنا نسا كآ لا عاجزين ،
فنية التجرد عن الدنيا نية مقبولة ، على شرط أن تكون من
وحي التحليق لا وحي الأسفاف

إن الأمم القوية تستطيع تلوين الأنظمة السياسية بشتى
الألوان ، وتستطيع أن تبلغ صوتها إلى آفاق الشرق والغرب ،
وتستطيع أن تعقد المعاهدات وتثير الحروب ، ولكنها لا تستطيع
خلق الأديب ، لأن الأديب لا يخلقه غير فاطر السماء
الدنيا لنا ، إن شئنا ، فالرواهب الأدبية أعظم الرواهب ،
ولو بذلنا في طلب الدنيا معشار ما نبذل في طلب الأدب لكنا
أعنى الناس ، فلتكف الدولة برها عنا ، فنحن كأشجار
الصحراء ، لا نرجو غير ندى السماء

أيجود الله علينا بالأدب ويبخل بالرغيف ؟

قولوا كلاماً غير هذا ، فلن يتخلى الله عنا ، وسنظل بفضل
أعنى الأغنياء

المصريين

في هذه اللحظة ملصل المهتاف مؤذناً برحيل الأستاذ
طه الراوى عن القاهرة بعد دقائق ، فإ الوسيلة لتوديع رجل
كانت داره ولنى تزال دار المصريين فى بشداد ؟

حين تقرر سفر الأستاذ صادق جوهر إلى العراق كان من
الواجب أن أقابله أنا والدكتور عبد الوهاب عزام أندله على
أصدقائنا هناك ، وقد دللناه على رجلين : طه الراوى ورضا
الشيبى ، مع حفظ الحقوق لسائر من عرفنا من كرام الرجال
بوطن دجلة والفرات

وقد كان تقيماً للناس أن يروى أذكر العراق بالخير فى كل
وقت ، وقائهم أن يعرفوا أن المصرى حين يشترق لا يكون
همه إلا معرفة السكنوز المجهولة من فضائل الشرق
ونحن عرفنا العراق ، فهل رأينا فيه غير الجميل ؟ ولنفرض
أن فريقاً ممن عاشوا فى العراق عانوا بعض المتاعب ، فتنى خلت
الحياة مما يكدر الصفاء ؟

وهل نجد السعادة كاملة فى أى أرض حتى نشدها كاملة
فى العراق ؟

إذا عزنا على أن أصفح الأستاذ طه الراوى وهو راجع إل

وفى أدبائنا من يتوهم أن نظم أبيات فى هذا الفلان أو ذلك
الفلان تمنحه الرزق ، فإن صح توهمه فسيكون رزقه من الرزق
الحرام لا الحلال

إن رزق الأديب من الذوق ، واللحمة الواحدة من طلعة
البدر قد تكون زاده الروحى إلى آخر الزمان
إن الأديب الحق ليس أسيراً للوطن ولا أجيراً للمجتمع ،
فكيف يكون أسيراً لفلان ، أو أجيراً لفلان ؟

وعبد الحميد الديب لم يقتل نفسه عامداً متعمداً ، فأنتم
خدعتموه وضللتموه ، وفرضتم عليه أن يستغيث بمعروفكم
يا أشعواء !

تقول الميارة المصرية « فلان يقتل المقتول ويمشي فى جنازته »
وأنتم القتلة لذلك الخلق الذى وثق بكم ، وأنتم حملة المصاحف
أو القمام بجنائزته المعجفاء ، فما قيمة براعتكم فى الرأى !

إن دموعكم يا قائله لن تنجيكم من غضبى عليكم
فاسمعوا هذه الكلمة ، واعلموا أن بكاءكم فى هذا الاحتفال
سيمر بلا ثواب ، وقد يكون مجلبة العقاب ، لأنكم تزينون
لسامعكم حياة لا ترضونها لأنفسكم إلا مكرمين

ثم قلت : وماذا فى خطاب وزير الشؤون الاجتماعية ؟
إن فؤاد باشا سراج الدين يعيد بأن سيضع نظاماً يثق
الأدباء شر التشرد ، وأنا باسمكم أعلن استقلال الأدب عن
الحكومة ، فما يجوز أن نطالب الاستقلال لبلادنا ونطلب
الحماية لأقلامنا

إن تطوعت الدولة برعاية أديب أعجزه المرض عن طلب الرزق
فذلك عمل يستأهل الثناء ، ولكننا نرفض حمايتها لأديب
يستطيع كسب القوت -ولو بالقاس والمحراث

نحن لا نطالب الدولة بشئ ، وإنما نطالب أنفسنا بكل شئ ،
فن الواجب أن تكون لنا مشاركات فى جميع الميادين ، من
الواجب أن نكون رجال أعمال ، كالذى صنع شيخنا طلعت
حرب ، فقد حول ذوقه الأدبى إلى الاقتصاد . وبهذا استطاع
أن ينظم أعظم قصيدة عرفتها اللغة العربية ، وهى « بنك مصر »
ثم أردف القصيدة بمقطوعات هى تلك الشركات
وإذا بدا لنا أن نذهب من ساحات الثراء فليكن انسحابنا

محمد عبده ؟ فأجاب : الشيخ محمد عبده شخصية دولية لا أزهريه ، ولو كان الشيخ عبده في صبر الشيخ الراغب لأنى في إصلاح الأزهر بالأعاجيب . إن الشيخ عبده كان ثائراً ، والثوار لا يسلون من أذى الجهلاء ، أما الشيخ الراغب فهادئ ، وهدهو المصلحين يُشبه هدهو الينابيع المطمورة في جوف الأرض ، فهو يتحرك والناس يظنون أنه في سكون . ولقد قرأت له كلمات في تفسير بعض آيات القرآن نضمه في الصف الأول بين رجال الاجتهاد

قلت : والحكم بأن الأزهر لم ير مثل الشيخ الراغب منذ ثلثمائة سنة فيه جورٌ على أسلافه من الأكابر ، وفيه جورٌ على الذاتية المصرية ، وسأدعو الأستاذ الأكبر إلى وضع كتاب تُسجل فيه المناقب الكريمة لمن تولوا مشيخة الأزهر الشريف

النحو والنحاة بين الأزهر والجامعة

منذ أعوام أخرج الأستاذ إبراهيم مصطفى بحثاً طريفاً سماه « إحياء النحو » فردّ عليه الأستاذ محمد عرفة بكتاب جيد سماه « النحو والنحاة بين الأزهر والجامعة » ، ومن ذلك البحث وهذا الكتاب ظفروا بثروة أدبية تذكر بالجهود الكريمة للنحاة القدماء

وكان المنتظر أن يتشعب الجدل بين هذين الرجلين ، وأن تشور حربٌ نحوية تنتهي بأن يكون للمصريين مذهبٌ في النحو ينافس مذاهب البصريين والكوفيين والبندانيين

ثم لاحت فرصة الجدل حول « تيسير النحو » ، فظهرت أبحاث تبشر بطلائع جديدة في الدراسات النحوية ، وتبعتها تعقيبات في الجرائد العراقية والسورية

ثم ماذا ؟ ثم سكنت الأصوات ، وانصرف المجادلون عن حومة الجدل ، مع أن النحو لن يحيا إلا إذا سيرناه من المشكلات العقلية ، لنجذب إليه أنظار المتأدبين ، ولننفض عنه غبار الخمول ، فهل نرجو أن تثار معركة النحو من جديد ؟
نحي مبارك

بغداد فلن يمزّ على أن أخلق ألف فرصة وفرصة للحديث عما يتحلى به من شمائل وآداب

فلموا فلموا

كان الأستاذ عبد الجبار الجلبى قد صارحنى بأنه غير راضٍ عن القاهرة ، لأنها أصبحت صورة منقولة من الدائن الأوربية ، وقد أجبته بأن مصرية مصر هي سرعة النقل ، وقد نقلت مصر فكرة الانتفاع بالسكك الحديدية قبل أن ينقلها الأتراك ، مع أنها كانت في ذلك الوقت ولاية تركية

وحين دخلنا سنتريس قال السيد عبد الجبار : إن مدخل سنتريس مدخل قرية أوربية لا قرية شرقية ، فكيف انتقل التقليد إلى الريف ؟

فأجاب الأستاذ الراوى : لقد حان الوقت لتبديد النصيحة السخيفة ، نصيحة من يقول : لا تقلدوا مثل القروء ، فإنا كان القرد أذكى أنواع الحيوان إلا لأنه يقلد كما يقلد الإنسان ، وهل كان الحمار حاراً إلا لأنه يفعل عن التقليد ؟ وهل أفلحت أنجلترا إلا بتقليدها ما يجد من الاختراعات الأوربية والأمريكية ؟ قلدوا مثل القروء ، ولا تقلدوا غفلة الحمار ، فنحن نرى قرداً يقلو ظهر حمار ، ولا نرى حماراً يقلو ظهر قرد

الشيخ المرافى

في محطة القاهرة رأينا شيخاً من بعد ، فقال ضيوفي : من هذا الشيخ المهيّب ؟ قلت : هو الشيخ المرافى ، فتعالوا نسلم عليه ، لتقولوا إنكم سلمتم على شيخ الأزهر الشريف وأسرت فاستوقفت الشيخ ليسلم عليه ضيوفي ، فقال الشيخ حين رآهم : هل جئتم للسؤال عن طبيب ليلى المريضة في العراق ؟

فقال الأستاذ الراوى : يا سيدى ، إن الناس « يقولون ليلى في العراق مريضة » هم يقولون ، يقولون فهتفت : وأنا أيضاً أقول ، وليلى تفهم ما أريد وفي القطار قال الأستاذ الراوى : إن الأزهر لم ير مثل الشيخ المرافى منذ ثلثمائة سنة . قلت : وهل تنسى الشيخ